

سمات الخطاب السوسيولوجي في الجزائر بعد الاستقلال

د.زاوي مصطفى¹

لم يرتبط عمل السوسيولوجيا في المرحلة الاستعمارية بالجامعة، والمدارس الاكاديمية بقدر ما ارتبط بالسلطة السياسية الاستعمارية، وتوجيهاتها الصارمة للبحث في مجال العلوم الانسانية. ويمكن اجمالا وصف الخطاب السوسيولوجي الكولونيالي بأنه يطغى عليه المنظور الانتوغرافي كوجه من اوجه تبرير السيطرة الاستعمارية، و تقديم المجتمع الجزائري في صور تكاد تنزع عنه تواجده التاريخي وعلاقته بالحضارة العربية الاسلامية و ابعاد كل عناصر القوة في هذا التاريخ، ثم اعتبار الرأسمالية كنظام اقتصادي سياسي نقطة استدلال جديدة في التاريخ وكل ما سبقها جامد و غير قابل لان تبعث فيه الحركة من جديد، فديناميكية التاريخ اما ان تخضع لمنطق الرأسمالية او لا يمكن ان تقدم إيجابيات تاريخية للإنسان .

لقد ركزت السوسيولوجيا الاستعمارية على مجموعة من المجالات التي اصبحت واضحة المعالم مع تطور الظاهرة الاستعمارية في الجزائر ، حيث تناولت الظواهر الدينية و مؤكد ان تركيزها على هذا الموضوع يأتي من ادراك السلطة الاستعمارية و وعيها بمدى تاثير عنصر الدين في الحياة اليومية للجزائريين و اعتبار اشكالية الدين تحتوي اسئلة مركزية حول المجتمع و يتيح تناولها الاقتراب من طرح مواضيع اخرى وليس غريبا الاهتمام بالظاهرة الدينية ما دامت كل الانتفاضات و المقاومات الاولى ارتبطت بالدين او اطرتها الايديولوجيات الدينية مثل التصوف . لقد ركزت الدراسات الاستعمارية كذلك على مجال المرأة كونه يرتبط مباشرة ببنية الاسرة و العشيرة كوحدة صعب اختراقها و مثلت عنصرا من اهم العناصر في تكوين المجتمع و ديناميكيته سواء فيما يتعلق بالبنية الثقافية و الحقوقية و التشريعية او على مجال الحقوق و القانون الذي كان يرتبط بالشريعة الاسلامية اذ ظلت الشريعة الاسلامية فاعلة في مجالات عديدة مثل الارث و الزواج و الاسرة... الخ .

ان غرس قواعد قانونية جديدة كان يتطلب فهم البنية القانونية للمجتمع المستعمر وذلك قصد انتاج تشريع قادر على قولبة مصالح الراسمال الاستعماري كفضاء مريح يعتمد على الملكية الخاصة .

لقد ارتبطت السوسيولوجيا في مرحلة الاستقلال بمواضيع جديدة و اطرتها ايديولوجية اخرى وانتقلت من توجيه الراسمال الاستعماري الى توجيه سلطة سياسية تعيش تناقضات ذات سمات غير محددة، فبعد نجاح حركة التحرر الوطني في الحصول على الاستقلال السياسي في مناخ عالمي كانت توجهه الايديولوجية الاشتراكية التي انتشرت بسرعة كبيرة بعد النجاحات التي حققتها في الحرب العالمية الثانية وما تبع هذا من توسع غير مسبوق لهذه الايديولوجيا في العالم الثالث.

¹أستاذ محاضر قسم علم الاجتماع جامعة وهران

لقد بدأت السلطة السياسية عملها في الجزائر المستقلة و هي مؤطرة بشكل جد قوي بمعطيات ايدولوجية اشتراكية ارتبطت بطبيعة سلطة سياسية او تحالف قوى اجتماعية / سياسية كانت وليدة حركة وطنية بتناقضاتها ووجدت في هذه الايدولوجيات مكان واسعا يستقبلها ويحافظ على ميكانيزمات اعادة انتاجها، و بدأت تبحث عن كل الروافد الممكنة لنشر هذه الايدولوجية و من بين هذه الروافد نجد العلوم الاجتماعية فقرأت التاريخ من موقعها و نقلته للأجيال عبر مؤسسات التربية و انتجت منه اطروحات مفصلة لخدمة وجودها و استمراريتها السياسية و استمدت شرعيتها من هذه الاطروحات واعطت لمفهوم الوطنية ابعادا محددة وقيدت الحريات السياسية ضمن مجال محدد لا يهدد وجودها السياسي.

لقد استخدمت السلطة السياسية العلوم الاجتماعية و الانسانية بكل تشعباتها وبدون استثناء، و وجدت في علم الاجتماع الذي كان يمتلك تاريخا استعماريًا حافلا نسقا معرفيا قادرا على القيام بمهام جد مثمرة في علاقته بنشر الايدولوجية الرسمية و لهذا ربطته بالجامعة و حجمته بين اسوارها لينطلق من الجامعة ناشرا لهذه الايدولوجيا و الامثلة على هذا كثيرة تبدأ من المواضيع التي ناقشها علم الاجتماع في الجامعة وتنتهي باتصال الطلبة و الاساتذة بالمجتمع لتدعيم الاطروحات الايدولوجية للسلطة.

لقد اظهر علم الاجتماع توجهها جديدا، وذلك باعتماده موقفا رافضا لتراثه في الجزائر الذي ارتبط بالاستعمار و ممارسته، و بهذا نلاحظ ان السلطة السياسية اصبحت تنظر الى الانثروبولوجيا على انها بنيت كنظريات على الوجود الاستعماري ومن السهل جدا تبرير هذا الموقف كون الانثروبولوجيا في دراساتها الجزئية تناولت المجتمع الجزائري في تقليديته وركزت على العادات و التقاليد و العرف و الدين من موقع الانثروبولوجيا المرتبطة بالرأسمالية كموقع في التاريخ يدعو الى تجاوز المجتمع التقليدي كإنتاج لمرحلة ما قبل الرأسمالية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فان اغلب الانثروبولوجيين في الجزائر ارتبطوا بالمدرسة الاستعمارية و بمفاهيمها و تبريراتها لعمل الرأسمال الاستعماري ويمكن سحب هذا الموقف من الانثروبولوجيا على علم الاجتماع في الجزائر فالسلطة السياسية ارادت ان تنتقل به و بالاستعمار الى السوسيولوجيا التجريبية المرتبطة ايدولوجيا بتصورات السلطة السياسية الوطنية وليدة حركة التحرر الوطني.

لقد غابت المواضيع المركزية التي رافقت تطور السوسيولوجيا طيلة المرحلة الاستعمارية و هذا يدل على تغير نوعي في بنية السوسيولوجيا، فاذا كانت السوسيولوجيا الكولونيالية مبنية على مفاهيم محددة و على مواضيع تكاد تكون مكررة لا تخرج عن اشكالات الدين و التقاليد و العرف و اللغة فان السوسيولوجيا في مرحلة الاستقلال نحتت مفاهيمها وحددت مجالاتها و لم تخرج عن اطار التنمية بفرعيها الصناعية و الزراعية او الهجرة الداخلية و الخارجية و بهذا التحديد اصبحت السوسيولوجيا بعيدة عن قضايا مجتمعية كانت قد اقتربت منها حتى لو كان ذلك من منطلق استعماري في المرحلة الكولونيالية، و لم يعد لها وجود في بنية المواضيع المعالجة وانتقلت الى مجال جديد محاصر سياسيا ومتختم بايدولوجية السلطة السياسية.

لقد طرحت السلطة السياسية مسألة الاستقلال السياسي في علاقته بالانفصال عن الرأسمالية و تجاوز مرحلة التبعية وذلك ببناء اقتصاد قوي تنتشر قوته في المجالين الصناعي و الزراعي و هندست لهذا خطابا سياسيا ايدولوجيا هيمن لفترة طويلة و قامت بالترويج له في مجموعة من الاجهزة من بينها المؤسسات التربوية و الجامعية ببرامجها و المؤسسة الدينية بخطابها والمؤسسة الحزبية بممارساتها و ايدولوجيتها.

لقد دخل علم الاجتماع الكولونيالي القرى و المداشر و دور العبادة و الزوايا و الاسر بينما انكمش علم الاجتماع بعد الاستقلال في الجزائر في اسوار الجامعة وظل ينتظر توجيهات السلطة السياسية و بهذا لم يعد قابلا لان ينتج علماء اجتماع بقدر ما اصبح منتجا للمشتغلين بالسوسيولوجيا. اذن السؤال الذي نواجهه ما الذي جعل علم الاجتماع يتغير في بنيته المعرفية و يتجاوز تاريخا غنيا بالدراسات ويمثل تجربة تكاد تكون فريدة في العالم العربي، هل ابتعاد علم الاجتماع عن الاهتمام بالظواهر الدينية و تناولها بالدراسة يعني ان هذه الظواهر لم تعد تستهوي الباحثين الجزائريين بعد الاستقلال ام ان دور الدين تقلص و لم يعد يثير اهتمام السوسيولوجيين ام ان توجيه البحث السوسيولوجي نحو مجالات معينة وابعاده عن مجالات اخرى مثل الدين على سبيل المثال يفسر مدى تخوف السلطة من تناول الدين من قبل السوسيولوجيا او علوم اخرى قادرة على فهم دور الدين في المجتمع لان عملية طرح اشكالية الدين في المجتمع ستبدأ من اعتباره رهانا بين قوى سياسية مختلفة و متصارعة سياسيا او ما الذي جعل علم الاجتماع يبتعد عن تناول الاشكالات اللغوية او الاثنية في الجزائر.

ان تحول المجتمع من مجتمع مستعمر الى مجتمع مستقل فرض هذا التغير في بنية البحث في علم الاجتماع، لكن التغيير في هذه البنية اظهر ادلة شاملة لعلم الاجتماع الممارس بعد الاستقلال اي ان علم الاجتماع ظل خاضعا لايدولوجية السلطة السياسية بعد الاستقلال كما كان خاضعا و موجهها ايدولوجيا طيلة الفترة الاستعمارية مع فروقات يمكن الاشارة اليها كون ان علم الاجتماع في مرحلة الاستقلال كان من الممكن ان يستفيد من تراثه و تاريخه و تجربته و مسيرته حتى اذا كانت هذه المسيرة مرتبطة بالاستعمار ولو على مستوى المناهج و التقنيات، ان المتنوع لمسيرة علم الاجتماع يلاحظ عدم مواجهته لاشكالات عميقة طرحت في المجتمع الجزائري المستقل و لم يواكب اطلاقا ديناميكية المجتمع. ان الاصلاح الجامعي لسنة 1971 والذي مس برامج التعليم العالي ومن بينها برامج علم الاجتماع يشير الى ازمة كبيرة عاشتها الجامعة التي كانت مرتبطة الى هذا التاريخ بما تركه الاستعمار من برامج و يشير كذلك الى طموحات السلطة السياسية فيما تنتظره من الجامعات وذلك بتدخلها لمحاولة انتاج علاقة جديدة بين الجامعة و المجتمع تختلف عن العلاقة التي وجدت تاريخيا بين الجامعة الاستعمارية و المجتمع المستعمر.

يقول السوسيولوجي الجزائري محمد بشير " كانت الظروف الاجتماعية تتطلب اطارا تتماشى و اهتمامات المجتمع الجزائري الا ان الجامعة كمكونة لهذه الاطر كانت تسلك طريقا مخالفا متباينا، لقد

دفعت هذه المفارقة مجلة الجامعة الى التساؤل، الى ماذا كانت تهدف شهادة الليسانس في علم الاجتماع الموروثة عن العهد الاستعماري؟¹

لقد كان علم الاجتماع في المرحلة السابقة يقدم للطالب مجموعة من المعارف النظرية بدون اساس ومتطلبات الواقع ان البرنامج في النظام القديم كان غير مطلع على المشاكل الحقيقية للمجتمع، تلك المشاكل التي لم تجد مكانا لها في محتواه مما اضفى عليه عدم الفعالية، الامر الذي دفع بالمسؤولين الى الاعلان عن الاغتراب المأساوي لخريجي علم الاجتماع بين المهمة الواجب تحقيقها والقدرات المهنية لهؤلاء المتخرجين لذا يمكن القول ان المصالح الاجتماعية في تلك الظروف التاريخية كانت تقتضي تخريج اطارات تهتم بمتطلبات المجتمع في جميع المستويات و خاصة الارتباط بالاتجاهات الاساسية للمشروع التنموي بناء على ان ليس هناك اي علم يفصح عن الرهانات الاجتماعية بصورة جلية مثل السوسيولوجيا و ان السوسيولوجيا تمس المصالح حتى الحيوية منها في بعض الاحيان²

لقد اخذ حجم الثورة الجزائرية و طبيعتها وجه الاسطورة حيث طرحت مع نجاحاتها المضمون الاجتماعي للاستقلال واليات تدعيمه و التبيعية الاقتصادية و الصراع على السلطة و التسيير الذاتي و هشاشة التكوين الاجتماعي عموما و الطبقي بالخاص و الاعتماد على الفلاحين الذين كانوا يشكلون قرابة ثلثي السكان...الخ وضمن هذا الواقع دعت الجزائر الى الانفصال عن الظاهرة الاستعمارية و مواصلة تطبيقها بالفهم و النقد و الاستقصاء على الصعيدين العلمي و العملي و هو ما يمكن ان يترجم سوسيولوجيا بموقف رفض النقل الآلي لسياقاتها النظرية و المنهجية دون امعان في دعاويها و مراميها ودون تمحيص بالدور الذي يلعبه الخطاب السوسيولوجي ولعل هذا ما يفسر رواج كتابات فرانز فانون 1923-1961 ومالك بن نبي 1905-1973 في هذه الفترة، اذ حاول فرانز فانون توضيح دور البورجوازية الوطنية في تعميق عملية الاستقطاب هادفا الى انها قد اتخذت على الدوام مواقف مؤيدة للقوى الاستعمارية على حساب الوطنيين و لقد ركز على كيفية انتاج مفاهيم بديلة لما انتجه الاستعمار و كيفية تجاوز المعتقدات التي ارساها داخل المستعمرات بهدف الحفاظ على مصالحه و اهدافه و بهذا يدعو الى وجوب صناعة فكر اجتماعي سياسي/ايديولوجي جديد يدعم المرحلة الوطنية و لن يكون هذا الفكر ناجحا الا اذا كان قادرا على محو كل مخلفات الاستعمار اما مالك بن نبي فقد حاول صياغة سوسيولوجيا للثورة الجزائرية تعتمد على اطر نظرية اسلامية و نادى بانشاء علم خاص هو علم اجتماع الشعوب التي لا تزال خارج اطار الحضارة المعاصرة مكرسا له اربع مبادئ هي المبدأ الاخلاقي، الذوق الجمالي ، المنطق

¹ محمد بشير، مدخل لدراسة علم الاجتماع في الجزائر 72-82، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1949، ص16

² نفس المرجع ، ص17

العلمي و التقنية و هو ما يبدو في قوله " ينبغي ان ينشا علم اجتماع خاص بمرحلة الاستقلال ليكون بين ايدي من يشرفون على اجهزة الدولة اداة رقابة لا ينفصل عن جهاز التخطيط"¹ تشير هذه الدعوة الى ضرورة تغيير مقررات السوسيولوجيا الفرنسية التي ظلت تدرس بالجامعة الجزائرية حتى سنوات 1971 و كانت تطرح مشكلة الاستعمار على انها مسألة انسانية و على انها من وسائل نشر الحضارة البشرية .

لقد كان قسم علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية بعد الاستقلال يضم مدرسين غير جزائريين بل اغلبهم فرنسيين و هذا ما يفسر بوضوح الانفصال او الاغتراب الذي اصبح عليه علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية غداة الاستقلال يقول أ.كيفيليه A.cuvilier الذي مثلت مؤلفاته احد مصادر المقررات في علم الاجتماع قبل الاصلاح " ان البيض لم يحملوا معهم الشر الى البلاد التي استعمروها اذ في الغالب نجد انهم نشروا النظام و الامن بين الشعوب التي كانت من قبل لا تعرف السلام و الامن ... لقد كانت تتوزع في المغرب كله الفتن الداخلية بين القبائل و في كثير من الاحيان يؤدي تحرر هذه الشعوب من سيطرة الاستعمار الى عودتها الى الاحقاد و الحزازات القديمة و تذكروا بهذه المناسبة المذابح التي عرفتھا الهند بانفصال الباكستان عنها بعد خروج الانجليز "²

اذن فقد ورث الخطاب السوسيولوجي في جزائر ما بعد الاستقلال ركاما من المعارف و النظريات التي حكمتها مصالح ايدولوجية كولونيالية كان عليه تغييرها و اعادة النظر فيها عن طريق الاعتماد على الشروط الجديدة المصاحبة للاستقلال و غياب بعض شروط التواجد الاستعماري ، لقد بني الخطاب السياسي الرسمي على ضرورة الانفصال عن الرأسمال العالمي ومواجهته و التركيز على الخصوصيات الاجتماعية و الاقتصادية و بهذا نمت مفاهيم مركزية تتدرج بشكل واضح ضمن النظرية السياسية العالم ثالثة، وبالتوازي مع هذه المفاهيم بدأت تظهر وتنمو سوسيولوجيا ترتكز على ابعاد مفاهيمية بخصوصيات مجتمع حديث الولادة خرج من فترة استعمارية اثرت في تكوين بنيته بشكل واسع و يمكن وصف هذه الفترة اي فترة بعد الاستقلال مباشرة بانها كانت قاعدة لإنتاج سوسيولوجيا لاستقلال في مقابل السوسيولوجيا الكولونيالية.

¹مالك بن نبي، افاق جزائرية للحضارة، للثقافة للمفهومية ترجمة الطيب شريف مكتبة النهضة الجزائرية - الجزائر 1964

² GUERID DJAMAL « société algérienne et sciences humaines » in mouvement social et modernité in (alger,NAQD/sarp.2003) P 25